كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعي، رئيس رابطة جامعات لبنان ورئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، في حفل إطلاق كتاب "العرب وتحدّيات التحوّل نحو المعرفة والابتكار"، وذلك يوم الثلاثاء الواقع فيه 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 2021، عند الساعة الخامسة مساءً، في قاعة بيار أبو خاطر، حَرَم العُلوم الإنسانيّة – جامعة القدّيس يوسف، بيروت - طريق الشام.

يشرّفنا أن نستقبل اليوم أكثر من ضيف في رحاب جامعة القدّيس يوسف في بيروت، **الضيف الأوّل** هو معالي وزير التربية والتعليم العالي الأستاذ الرئيس عبّاس الحلبي الذي أخذ على عاتقه، منذ اليوم الأوّل، أمور التربية وشجونها بقوّة ساعدَيه ونشاطه الذهنيّ وبرجاحة الحكمة، خدمةً للتربية في لبنان من حيث إنّها القاعدة التي بُني عليها المصير، فأهلاً وسهلاً بكم في بيتكم. **والضيف الثاني**، ألا وهو ضيف يستحقّ منّا، في ظلّ الأوقات والأيّام القاتمة،كلّ تأهيل وتكريم، عنيتُ بـها مؤسّسة الفكر العربيّ التي هي ناشطة ودَومًا ناشطة، إنطلاقًا من بيروت، يعزّزها وجود صاحب السموّ الملكيّ الأمير خالد الفيصل على رأسها لتكون منارة تنويريّة لتعزيز التضامن العربيّ والهويّة العربيّة الجامعة المحتضنة لغنى التنوّع والتجديد بنهج الحريّة المسؤولة، واستنادًا أيضًا إلى الدَور الذي يضطلع به الأمين العام للمؤسّسة البروفسور هنري العويط فكان ولا يزال، منذ تبوّئه المنصب، خير المسؤول عن الأعمال والأنشطة والمنشورات وغالب سياسات المؤسّسة.

الضيف الثالث، وهذا ما قادكم اليوم إلى هذا المسرح بالذات، هو كتاب لا كغيره من الكتب إذ هو صادر في صيغتَين، العربيّة والإنكليزيّة، عن مؤسّسة الفكر العربيّ المعروفة بتقاريرها السنويّة عن التنمية الثقافيّة العربيّة، وهو كتاب معرفيّ بقلم مفكّرَين بارزَين من قادة الفكر والإبداع في عالمنا العربيّ هما الدكتور معين حمزة، الأمين العامّ لمجلس البحوث العلميّة في لبنان، والخبير والمستشار في السياسات العلميّة والتنمويّة وبرامج التحديث، والدكتور عمر البزري، مستشار سياسات العلوم والابتكار والتنمية المستدامة

في العالم العربيّ، فكان من ثمرة عملهما المشترك الجدّي والمسؤول هذا المؤلَّف في "العرب وتحديّات التحوّل نحو المعرفة والابتكار". وهنا، نحن اليوم بمبادرة من مؤسّسة الفكر العربيّ وبالاشتراك مع رابطة جامعات لبنان، إنّما نحتفي بصدور هذا الكتاب لا بل، وهنا بيت القصيد، إنّما نستقبل أفكاره ونهجه ومعلوماته ومقاصده لكي تصبح نهجًا ومقصدًا للدولة وللجامعة في دنيا العرب، في وقت تتعاظم فيه وتتفاعل التحديّات العلميّة والأكاديميّة والتكنولوجيّات بمختلف أنواعها.

فهذا الكتاب هو موسوعة مرجعيّة في مجالات البحث العلميّ على مستوى العالم العربيّ فيحدّد السياسات والمنهجيّات والاستراتيجيّات التي صاغتها مختلف الأوطان العربيّة لنجد أنّ هنالك مسعى يحمد عليه لتطوير النظرة إلى ضرورة العمل على توجيه البحث العلميّ نحو المزيد من المعرفة والابتكار. إلّا أنّ هذا العمل يبقى خجولاً وسطحيًّا في غالب الأوقات، حيث إنّ الجامعة في العالم العربيّ، إذا ما توقّفنا على هذا الموضوع كما يُحدّده الكتاب، راحت في عملها نحو الاستجابة إلى إعداد حاملي الشهادات العليا وما يستتبعها من ازدياد العاطلين عن العمل، في حين لجأت بعض الجامعات الخاصّة، خصوصًا الحديثة منها، إلى التتجير، أي إلى اعتبار الجامعة تجارة رابحة. وبخصوص تنوّع الاختصاصات، وهو أمر شديد الأهميّة، هناك تفاوت بين مجموعة عربيّة وأخرى من ناحية تأمين الموارد البشريّة الأساسيّة في ميادين التربية والرعاية الصحيّة والهندسة والإدارة وعلوم المجتمع، بينما يعلو الانتساب في العديد من الدول إلى برامج الآداب والعلوم الاجتماعيّة والبشريّة وإدارة الأعمال. وربّما كان ذلك مؤشّرًا إلى عدم فعاليّة المدارس في إعداد العدد الوفير من الطلاّب للتوجّه نحو الاختصاصات العلميّة من برامج العلوم البحتة والرياضيّات وتكنولوجيا المعلومات والهندسيّات وعلوم الحاسوب واليوم في اختصاصات الذكاء الاصطناعيّ وتحليل البيانات والتكنولوجيا. ويشير المؤلّفان بشكلٍ صريح إلى أنّ التعليم العالي يعاني من غياب الرؤى

والخطط الشاملة وتدهور النوعيّة وغَلبة الكمّ على النوع، كما يعاني من المركزيّة المعيقة وتأمين التجهيزات الأساسيّة لتوفير البحث العلميّ والابتكار. ويسلّط الكتاب الضوء مرّة جديدة على ضرورة مراجعة طرق حوكمة الجامعات، بحيث ينبغي تعزيز الإدارة المستقلّة للجامعة فيتمّ تشكيل مجلس أمناء ذي صلاحيّات حقيقيّة، إلى جانب المجلس الأكاديميّ ومجلس إدارة الجامعة، بحيث يتمّ الارتقاء بالحريّات الأكاديميّة إلى المصاف المطلوب وتحقيق أنظمة الجودة والنوعيّة ودفع البحث العلميّ ومجابهة التحديّات.

هذا الكتاب، عبر مؤلّفَيه، يطرح السؤال الأساسيّ التالي على قارئيه وعلى الحوكمات وكذلك على الهيئات الأكاديميّة والبحثيّة وعبر المعادلة التالية: إذا أردنا أن يتبوّأ بعض العرب بعض المرتبة العالية في سلّم الدول المتقدّمة إقتصاديًّا وتنمويًّا، وإذا أردنا الوصول إلى الأمن الذاتيّ الغذائيّ والمائيّ والطاقة المستدامة، وإذا كانت التنمية البشريّة المستدامة هي الأساس والمرجع والغاية في كلّ خطّة، فماذا ينبغي عليهم أن يفعلوه لتحقيق هذا المرتجى؟

يجيب الكتاب على السؤال الأساسيّ هذا عبر وصفٍ مستفيض بدقّة الكلام والأرقام التي تبيّن الفرق الشاسع بين الواقع والمأمول. فالبحث العلميّ هو المدخل الصحيح نحو هضم التكنولوجيا وتحديد مسارات التنمية البشريّة والاقتصاديّة يعوقه القليل الذي ينفق عليه مقارنةً بالجيران والأبعدين، وغرق بعض المجتمعات في الحروب والفساد بحسب إحصائيّات المجالس الدوليّة ممّا لا يشجّع الإنسان العربيّ على التنفّس بشكل جيّد. إلاّ أنّ المؤلّفَين يقولان إنّ حالة الضعف والتقصير لا يتبغي أن تولّد اليأس في النفوس بل إنّ فترات من تاريخ الوطن العربيّ شهدت نموًّا بشريًّا لا بأس به وأنّ عدد المتعلّمين في الدول العربيّة يبشّر خيرًا، ممّا ينعكس إيجابًا على الاستراتيجيّات العلميّة الواضحة في المجالات الاجتماعيّة والعلميّة والتكنولوجيّة لتحقيق النهضة الجديدة المتلائمة مع الثورة الصناعيّة الرابعة، وبالتالي الخروج من التراجع الذي طبع الحقبة 2012-2018 وهي حقبة تتمادى اليوم في تراجعها.

ويأتي هذ الكتاب في الختام يحمل قضيّة هي قضيّة مستقبل الوطن العربيّ بقوّته الاجتماعيّة والاقتصاديّة والعلميّة والتكنولوجيّة. فإذا كان هذا الوطن يريد قيامته لا بدّ من وعي لذاته ولقوّته وقدرته في تجاوز المحنة ورفع الخطط الدقيقة مع مؤشّرات تحقيقها ونجاحها وربّما إخفاقها لإعادة الارتباط بالركب العالميّ من ناحية المستويَين العلميّ والاجتماعيّ.

وأخيرًا أتوقّف عند فكرتين مستخرجتَين من سياق نتائج هذا المؤلّف:

أوّلًا، إذا كنّا نريد بالفعل تنمية مستدامة وأمنًا قوميًّا وابتكارات لخدمة شعوبنا فلنركّز على فكرة تعلّمناها في وثائقنا التي تحدّد رسالة الجامعة والمدرسة والمعهد المهنيّ والتقنيّ: الهدف من التربية هو إعداد إنسان يتعلّم الإنتاج لأنّ في كلّ إنتاج إبتكار وتجديد للحياة، وما نقوم به بالإجمال هو إعداد المستهلك الذي لا يفقه الإنتاج بل يقضي على الأخضر واليابس ويصبح عالة على مجتمعه. فالمهارات والكفاءات التي يتعلّمها الولد في المدرسة والشابّ في الجامعة من شأنها أن تجعل منه المنتج الخادم لمجتمعه. ونأسف أن نرى أهل الإنتاج والابتكار ينزحون شرقًا وغربًا لأنّ لا مكان لهم في مجتمع لا يفكّر سوى بالتنظير والاستهلاك وبالتالي الارتهان للمنتج.

الفكرة الثانية تكمن في أنّ قدرة الدول لا تُقاس اليوم بالكمّ وبالعدد وبالمال الذي نقتنيه أو الثروات الكافية في باطن الأرض، بل في قدرتها على الابتكار، فالانتاج ومراكمة القدرات الاقتصاديّة والاجتماعيّة. فالدول الناجحة اليوم هي الأقوى، حتّى سياسيًّا، في إدارة نفسها وإدارة إقليمها وهذا ما هو حاصل في عالمنا المشرقيّ اليوم، حيث إنّ دولاً ثلاث أو أربع في المحيط والإقليم هي الأقوى إقتصاديًّا وتكنولوجيًّا وكدت أقول نوويًّا هي الأقوى سياسيًّا وهي التي تتجرّأ على الهيمنة على الوطن العربيّ الذي هو أضعف منها علميًّا وتكنولوجيًّا، وفي احترام موقع المرأة وقوى الانتاج. فليست العضلات هي التي تخيف أو تصنع التاريخ بل ذلك الذي ابتكر واخترع ووسّع آفاقه الاجتماعيّة والاقتصاديّة وأصبح نموذجًا للآخرين. فلنحكّم النظر ولنتعلّم!

مبروك لمؤسّسة الفكر العربيّ على نتاجها القيِّم!

ومبروك للمؤلّفَين أيضًا اللذَين أمضيا الساعات والأيّام وبذل الجهود لإعداد هذا الكتاب!

ومبروك لنا أيضًا في جامعاتنا ومدارسنا لأنّ في الكتاب الكثير من الأفكار الصالحة لطلاّبنا ولمستقبلهم.

وبما أنّنا في سنة القدّيس إغناطيوس مؤسّس اليسوعيّين، في ذكرى ارتداده الـ 500، نقول: فليكن كلّ هذا لمجد الله الأعظم وللبنان والوطن العربيّ.